مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية
King Faisal Center for Research and Islamic Studies
تعليقات

المساجد «العربية» و«تصيين» الإسلام بين مجتمعات الـ«هُوي» في الصين

د. ديفيد ستروب

جمادى الأولى ١٤٤٣هـ - ديسمبر ٢٠٢١م

في جدار قاعة المؤتمرات في المسجد الكائن بقرية «جانغ جياتشون» الغربيّة (West Zhangjiacun) بناحية «تيانتشياو» (Tianqiao)، في مدينة «جينان» (Jinan)، يجد الداخلُ إلى القاعة، صورةً صغيرة شاحبةً ذاتَ إطار، تذكّر الزوّار بماضي المجتمع المحلّيّ هناك. ويظهر في منتصف الإطار مبنىً حجريٌّ قديم. وعلى انثناءات السطح تنبُت الأعشاب وتنمو الحشائش مرتفعةً حول أنحاء أساساته المتهالكة. ولكن قد يحتار المُشاهِد غيرُ المُطّلِع في سبب هذا القرار، بوضع صورة هذا المبنى المتهدِّم في إطار، وعرضها على روّاد المسجد. وقد شعرتُ أنا أيضاً بالحَيرة حين كنتُ أحدِّق فيها خلال زيارتي (إلى المسجد) في نوفمبر عام ٢٠١٥م. وحين رآني إمامُ القرية أحدِّق في الصورة (وهو رجل بَدين في أوائل الأربعينيّات من عمره، نشأ في بيئة أكثر تحضّراً نسبيّاً، بمدينة جينان، على بُعد نحو ١٠ كيلومترات)، عزَمَ على تثقيفي أكثر بخصوص الصورة. فقال لي، وقد أشرَق وجهُه حين بدأ يشرح: «هذا ما بدَا عليه المسجدُ القديم قبل أن نبني هذا المسجدَ الجديد». حينها فقطّ، لاحظتُ ذلك النصَّ المكتوبَ بخطّ أحمر صغير في الصورة، وفيه كلمة «المسجد القديم» (بالصينيّة: 老清真寺). وكان التاريخ المُدرَج (في الصورة)، هو: ١٩٩٥م.

صورة رقم (١): المسجد «القديم» في قرية جانغ جياتشون الغربيّة، وقد هُدِم في عام ١٩٩٥م.

مقارنةً بالمبنى القديم الذي كان على وشك الانهيار، وهو الذي عرفتُ –لاحقاً– أنّه بُنِي في عهد أسرة «مينغ» (Ming) (١٣٦٨م-١٦٤٤م)، كان البناءُ الجديد في قرية «جانغ جياتشون» الغربيّة، يتلألأ بثبات. وككثيرٍ من المساجد التي بُنِيت في «عهد الإصلاح والانفتاح» (Reform and Opening Era) في الصين (منذ عام ١٩٧٩م إلى اليوم)، اتّبع مسجدُ قرية «جانغ جياتشون» الغربيّة ما يُسمّيه مسلمو عرقية «الهُوي» (Hui) الصينيّون «الطرازَ العربيّ» (بالصينيّة: 阿拉伯式). وتقوم في المسجد الجديد، المُشيَّد من القرميد الأبيض والأخضر المُميّز، مِئذنتان شاهقتان ذواتَا قِباب خضراء، كلتاهما دقيقةٌ في بنائها، ويعلوهما هلالان. خلال الحوار، سألتُ الإمام: «كيف كان ردّ فعل السكّان على هدم المسجد القديم؟» فأجابني: «حسناً. لقد كان قديماً جدًا، وتَضَعْضَعت أركانُه (بالصينيّة: 破破旧旧的)»؛ ثمّ أضاف بفخر: «وإلى جانب ذلك، أتاح لنا –ذلك الأمرُ– تشييدَ هذا المسجد على الطراز العربيّ!»

ومع أنّ المساجدَ المُشيَّدة على «الطراز العربيّ، »مصدرُ فخرٍ لأهالي المجتمع الإسلاميّ الصينيّ، أصبحت اليوم بؤرةَ اهتمامِ حملةٍ وطنيّة من أجل «التصيين» (Sinicization)، أزالت القِبابَ والمآذنَ والخطوطَ العربيّة وغيرَها من سمات الأرابيسك من المساجد والمباني العامّة الأخرى في أنحاء الصين[1]. وتستدعي هذه التحوّلاتُ الجذريّة، طرحَ عدّة تساؤلات: لماذا يُولِي المجتمعُ –هناك– هذه الأهمّيّةَ الثقافيّة لسمات «الطراز العربيّ»؟ وكيف لِعمارة المساجد أن تشكّل تهديداً لمصالح الدولة الحزبيّة إلى الدرجة التي تستدعي إزالتها؟ وما الغاية من هذه الترميمات؟ ولكي نفهم سبب كون تلك التغييرات تحوّلا جذريّاً في سياسات الدولة الحزبيّة تجاه التعبير العرقيّ والدينيّ، وكيفيّة تأثير ذلك في مجتمعات الـ«هُوي»، فإنّنا نحتاج إلى استكشاف تاريخ هذه المساجد ذات «الطراز العربيّ»، إضافةً إلى تقييم الأهمّيّة الثقافيّة والرمزيّة لهذه المساجد.

حين سافرتُ في عام ٢٠١٦م، إلى أجزاء من منطقة «نينغشيا» الريفيّة ذاتيّة الحكم لقوميّة الـ«هُوي» (Ningxia Hui Autonomous Region)، كان هناك انتشارٌ في أنحاء المشهد لعددٍ لا يُحصى من المساجد ذات القِباب البَصَليّة المُميّزة والمآذن النحيلة، وكان بالإمكان رؤيتها –بوضوح– من الطرق السريعة المتقاطعة مع السهول. وجميعُ هذه المساجد –تقريباً– أُقِيمت في العقود الثلاثة التي تلت انطلاق «عهد الإصلاح»، لتحلّ محلّ المساجد القديمة، التي إمّا دُمِّرت أو صارت في حالاتٍ من التدهور الشديد الذي لا يمكن إصلاحه. وفي أعقاب «الثورة الثقافيّة» (Cultural Revolution) (في المدة بين عامَي: ١٩٦٦م-١٩٧٦م تقريباً)، بدَت على كثيرٍ من المساجد الصينيّة آثار الإهمال والتعرُّض للتخريب.

فعلى سبيل المثال، أوضَحَ تاجرٌ في حيّ الـ«هُوي» بمدينة «جينان»، أنّه بين عامَي: ١٩٦٦م-١٩٨٤م، استُخدِم «مسجدُ «جنوب جينان الكبير» (أحدُ أكبر المساجد في شرقي الصين وأقدمها) مصنعاً قبل أن يُغلَق تماماً في النهاية. ورَوت امرأةٌ في منتصف الخمسينيّات من عمرها، كيف كانت الأسرة (خلال طفولتها) تُخفي المصحفَ، وتُرخي الستائرَ عند أداء الصلاة. وتذكّرَت –أيضاً– كيف كانت الأسرة تُعِدّ في عيد الفطر (بالصينيّة:开斋节) كعْكَ «يو شيانغ» (香油) المقليّ في الزيت، متضرّعين ألّا يلفِتَ هذا انتباهَ الجيران من قوميّة «هان» (Han). وبتأمُّلها في هذه الظروف، أشارت إلى أنّ طفولتها شهدَت مرحلةَ خسارةٍ ثقافيّة كبيرة لمجتمعها. وحين أُعيد افتتاح المسجد بعد نحو عشرين سنة، كان بحاجةٍ ماسّة إلى الإصلاح والترميم. وبينما نجحت –في نهاية المطاف– جهودُ مجتمع الـ«هُوي» (هناك) في إنقاذ «مسجد جنوب جينان الكبير»، لم يكن ذلك مصيرُ المساجد في المجتمعات الأخرى، فقد تضرَّر بعضُها (مثل: «المسجد القديم» في قرية «جانغ جياتشون» الغربيّة) بصورة لا تقبل الإصلاح والترميم، فيما هُدِمت مساجد أخرى تماماً.

ومع ذلك، فإنّ نهج الدولة الحزبيّة الأكثر تساهُلاً تجاه التعبير الدينيّ، بعد نهاية الحقبة الماويّة في عام ١٩٧٨م، أتاحَ لهذه المجتمعات إصلاحَ أو استبدالَ المساجد التي

تعرَّضت للهدم. وحين بدأت قوميّة الـ«هُوي» المتديّنة في الظهور علناً بعد سنوات من الخفاء، كانت استعادةُ أماكن العبادة أولويّةً لديها. على مدار العقود الثلاثة اللاحقة، ظهرت مساجدُ جديدةٌ متألّقة على «الطراز العربيّ»، وكانت تُقام -في الأغلب- في المواضع ذاتها التي كانت فيها المساجد القديمة المُشيَّدة على الطراز الصينيّ. وقد كان إحياءُ هذه المجتمعات مصدرَ فخرٍ للمصلِّين هناك، ومثّلت هذه المبانيّ الجديدة مظهراً ماديّاً لهذا الإحياء.

فعلى سبيل المثال، في أكتوبر عام ٢٠١٥م، وعند وقوفي في موقع إنشاء مليءٍ بالأتربة في مدينة «جينان»، حيث كان هناك مبنىً جديد يُقام على «الطراز العربيّ» في المكان ذاته الذي كان مُشيَّداً فيه مسجد «بيدا هوايشو» (Beida Huaishu Mosque) في السابق، سألتُ رئيسَ العمّال عن شعور سكّان المكان حيالَ عمليّة الهدم، وهل أسِفوا على إزالة «المسجد القديم» الذي يعود بناؤه إلى عهد أسرة «مينغ»؟ فأجابني قائلاً: إنّ «ذلك البناء القديم لم يكن ذا خصوصيّة وميزة كبيرة، وإلى جانب هذا، فقد أنقذنا جميعَ القطع الأثريّة المهمّة بداخله، وسنضعها في المسجد الجديد، وبالتالي، سيكون هذا البناء الجديد أجمل». وأوضح أنّ المصلّين كانوا فخورين بقدرتهم على تمويل قاعة الصلاة الجديدة هذه، التي تمثّل مركزاً لافتاً وبارزاً لذلك المجتمع.

إضافةً إلى ذلك، فإنّ فرصة بناء أماكن جديدة للعبادة أتاحت لمجتمعات الهُوي استكشافَ ميراثهم الثقافيّ بشكلٍ تامّ؛ خلال عمليّات إعادة البناء. وكما أوضَح رَجلان التقيتُهما في مدينة «لانجو» (Lanzhou)، فإنّ تبنّي «الطراز العربيّ» في هذه المساجد الجديدة لَبَّى رغبةَ كثيرين من الـ«هُوي» في إعادة اكتشاف ثقافتهم. وزعَم أحدُهما: أنّ «أجدادنا كانوا من شبه الجزيرة العربيّة، وحين جاءوا إلى هنا تزوّجوا من المجتمعات الصينيّة. ولقد نسينا كيفيّةَ بناء هذه الأنماط من المباني؛ لكنّا اليوم، نُعيد الاتّصال بالعالم الإسلاميّ». فبالنسبة له ولكثيرين غيره، تمثّل إعادةُ بناء [المساجد] على «الطراز العربيّ» إحياءً لصلةٍ مفقودة بميراث شرق أوسطيّ بعيد.

لم تكن هذه الصلات مجازيّةً فحسب. فمع إعادة الصين تأهيلَ الدين خلال الأيّام الأولى من «عهد الإصلاح»، ومع سعيها إلى إحياء كثير من العلاقات الدوليّة التي تراجعَت خلال «الثورة الثقافيّة»، اجتذبت استثماراتٍ من دول تقع في نطاق العالم الإسلاميّ الأوسَع. وبمساعدة التبرّعات السعوديّة والخليجيّة والباكستانيّة والتركيّة، استطاعت كثيرٌ من المجتمعات المسلمة في الصين استبدالَ مساجدها القديمة المتهالكة، وبناءَ مساجد جديدة تعلوها قِبابٌ مُميّزة[٢].

صورة رقم (٢): مسجد نانغوان (Nanguan) في مدينة ينشوان (Yinchuan)، وهو مسجدٌ أُقِيم على الطراز العربيّ خلال العِقد الثاني من القرن الحاضر.

ومع أنّ تسمية هذه المباني بمساجد «الطراز العربيّ» قد تكون تسميةً خاطئة (فمعظمها يستلهم الطرازَ المعماريّ المغوليّ، الذي نشأ خلال القرن السادس عشر الميلاديّ في الهند، لا في شبه الجزيرة العربيّة)، إلا أن الـ«هوي» يعبِّرون عن فخرهم واعتزازهم الكبير بما يتصوّرونه أصالتهم الإسلاميّة[٣]. ولقد تباهَى أحدُ الرجال بمدينة «لانجو» بكون مساجد المدينة قد بُنِيت جميعُها على طراز إسلاميّ «حقيقيّ». وبازدراءٍ، أبدى استخفافاً بالمساجد القديمة الأكثر انتشاراً في مدن شرقي الصين، ساخراً منها بقوله» إنّها «تبدو أشبه بمعابد كونفوشيوسيّة».

وبالتالي، تمثّل هذه الأبنية (على الرغم من حداثتها) قيمةً ثقافيّة عميقة لَمَن يجتمعون فيها لأداء العبادة. فبالنسبة لكثيرين من الـ«هُوي»، كان تمكّنُهم من البناء على «الطراز العربيّ» مؤشّراً على إعادة الاتّصال بماضي الأجداد البعيد. وإضافةً إلى ذلك، وبجانب إعادة اكتشاف الجذور الثقافيّة، فإنّ هذه الأبنية الجديدة برهانٌ على قدرة مجتمع الـ«هُوي» على الالتحاق بالعالم الإسلاميّ من جديد بعد سنواتٍ من القطيعة. وقد ربط التمويلُ المشترك من الدول ذات الأغلبيّة المسلمة مجتمعاتِ الـ«هُوي» بالأمّة الإسلاميّة حول العالم، ودلَّ على إحياء الإيمان فيها، وإعادة تأهيل مجتمع يفخر به المؤمنون حقّاً.

وفي ضوء الرمزيّة المُستثمَرة في تلك المساجد، فإنّ الحملة الأخيرة من أجل تجريد تلك الأبنية من القِباب والمآذن وغير ذلك من سِمات الطراز «العربيّ»، تمثّل انقلاباً مُربِكاً ومذهِلاً. فجزءٌ من الصدمة التي أصابت مجتمع الـ«هُوي» يأتي من اتّساع نطاق الحملة وشدّتها. وفي الواقع، لم يقتصر توجّه «تصيين» الأماكن على المساجد الصغيرةَ فحسب، بل أحدَث تغييراتٍ كبيرةً في بعض أكبر أماكن العبادة في الصين وأبرزها. ففي عام ٢٠١٨م، أُجبِر مسجد «ويجو الكبير» (Grand Mosque of Weizhou)، وهو الأكبر في منطقة «قوانغشي» ذاتيّة الحكم لقوميّة «جوانغ» (Guangxi Zhuang Autonomous Region)، على البدء في إزالة قِبابه ومآذنه[٤]. وفي وقت متأخّر من عام ٢٠٢١م، كانت الحملة قد وصلت إلى اثنين من أشهر مساجد الصين

صورة رقم (٣): بهو مسجد دونغوان (Dongguan) في مدينة شينينغ (Xining)، خلال العام ٢٠١٥م. وقد أُزيلت القِباب والمآذن في تمّوز/يوليو ٢٠٢١م.

وأهمّها، وهما مسجدَا «نانغوان» بمدينة «ينتشوان» (Nanguan Mosque of Yinchuan)، مؤخراً مسجد «دونغوان» بمدينة «شينينغ» (Dongguan Mosque of Xining)[٥]. وفي خارج منطقة الشمال الغربيّ، فُرِضَت على الأبنية في مناطق: «يونّان» (Yunnan)، و«خِنان» (Henan)، و«شاندونغ» (Shandong)، وبكّين (Beijing) –تغييراتٌ؛ لإزالة العناصر المعماريّة غير الصينيّة[٦].

وممّا يزيد من فُجائيّة الحملة وقوّتها؛ طبيعةُ التغييرات نفسها. ففي كلّ حالة من تلك الحالات، جَرَّدت الحملةُ تلك الأبنيةَ من عناصر معماريّة إسلاميّة مُميّزة، وأحلّت مكانها –أحياناً– أسقفاً مُعدَّةً لاحقاً، أو تفاصيلَ صُنِعت لتبدو أكثر صينيّة، مثل: الأسقف القرميديّة، والجَمَلُونات المقلوبة. وهذه الترميمات، لا تطمس آثار الهويّة الإسلاميّة لتلك المباني فحسب، بل –عادةً– تجعلها –أيضاً– «أبنيةً باهتةً وغيرَ مُميّزة حتماً»[٧]. وعلى هذا النحو، فإنّ هذه الترميمات لا تجرِّد [الأبنية] من عمارتها المادّيّة فحسب، بل هي في الواقع، تخلع عن قوميّة الـ«هُوي» جوانبَ هويّتِها نفسِها.

وبالتالي، لم تبعث الدولة الحزبيّة، من خلال استهداف المساجد المُشيَّدة على «الطراز العربيّ»، رسالةً عن الموقف الرسميّ من التعبير الدينيّ فحسب، بل –أيضاً– عن طبيعة الهويّة الصينيّة نفسها. وعبر تأكيد أنّ الأديان في الصين يجب أن تكون «صينيّة التوجُّه»، كما قال الرئيس «شي جينبينغ» (Xi Jinping) في خطابه أمام المؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعيّ الصينيّ عام ٢٠١٧م، ومن خلال تشريع تلك الإجراءات؛ عبر سياسات تشدّد على الاندماج، فإنّ الدولة الحزبيّة، ترسّخ رؤيةً أكثر خصوصيّة للأمّة [الصينيّة]. وبذلك، تَمنع التعبير الإسلاميّ الصريح؛ بوصفه غير متوافق مع الهويّة الصينيّة.

بالنسبة لكثير من الـ«هُوي»، الذين يعدُّون أنفسَهم أقلّيّة نموذجيّة، نمَت وازدهرت تحت قيادة الدولة الحزبيّة في «عهد الإصلاح»، فإن هذه الإجراءات تُعدُّ مُحيِّرة. فكثيرون من الـ«هُوي»، الذين يؤكّدون هويّتهم المزدوَجة، باعتبارِهم مسلمين **و**صينيّين **معاً**، يرون أنّ هذه التغيُّرات، تمثّل تحدِّياً لتصوّراتهم الذاتيّة وصفعاتٍ مذهلةً لهم. وكما تُشير المظاهرات محدودة النطاق الأخيرة، ردّاً على «تصيين» مسجد «دونغوان»، فإنّ لدى بعض الأشخاص العاديّين من قوميّة الـ«هُوي» دوافعَ لمقاومة هذه الإجراءات[٨]. وبينما أكّد أبناء قوميّة الهُوي –بشكل كبير– مشاركتهم الحرّة في مشاريع الدولة الحزبيّة؛ باعتبارهم سفراء إلى العالم الإسلاميّ الأوسَع، فإنّ فرض قيود على التعبير الإسلاميّ يشكّل تهديداً لاستقرار هذه العلاقة [بين الدولة وقوميّة الـ«هُوي»].

(1) David R. Stroup, "The De-Islamification of Public Space and Sinicization of Ethnic Politics in Xi's China," *Middle East Institute*, September 24, 2019, https://www.mei.edu/publications/de-islamification-public-space-and-sinicization-ethnic-politics-xis-china; Nectar Gan, "How China Is Trying to Impose Islam with Chinese Characteristics in the Hui Muslim Heartland," *South China Morning Post*, May 14, 2018, https://www.scmp.com/news/china/policies-politics/article/2145939/how-china-trying-impose-islam-chinese-characteristics; Emily Feng, "'Afraid We Will Become The Next Xinjiang': China's Hui Muslims Face Crackdown," *NPR*, September 26, 2019, https://www.npr.org/2019/09/26/763356996/afraid-we-will-become-the-next-xinjiang-chinas-hui-muslims-face-crackdown; Emily Feng, "In An Attempt To Sinify China, Authorities Are Removing Domes From Mosques," *NPR*, September 28, 2021, https://www.npr.org/2021/09/28/1041082826/in-an-attempt-to-sinify-china-authorities-are-removing-domes-from-mosques; Rachel Harris, "Bulldozing Mosques: The Latest Tactic in China's War against Uighur Culture," *The Guardian*, April 7, 2019, https://www.theguardian.com/commentisfree/2019/apr/07/bulldozing-mosques-china-war-uighur-culture-xinjiang.

(2) Jacqueline Armijo and Lina Kassem, "Turning East: The Social and Cultural Implications of the Gulf's Increasingly Strong Economic and Strategic Relations with China," *Singapore Middle East Papers*, 1, 2012, 30; Daniel Bardsley, "China Shifts to More 'Authentic' Arabian-Style Mosques," *The National*, July 18, 2012, https://www.thenationalnews.com/uae/china-shifts-to-more-authentic-arabian-style-mosques-1.389123; Lawrence E. Butler, "Mosques and Islamic Identities in China," *Middle East Institute*, April 2, 2015, https://www.mei.edu/publications/mosques-and-islamic-identities-china; Lucile Greer and Bradley Jardine, "The Chinese Islamic Association in the Arab World: The Use of Islamic Soft Power in Promoting Silence on Xinjiang," *Middle East Institute*, July 14, 2020, https://www.mei.edu/publications/chinese-islamic-association-arab-world-use-islamic-soft-power-promoting-silence.

(3) Butler, "Mosques and Islamic Identities in China.", *Middle East Institute*.

(4) Nectar Gan, "Chinese Hui Muslim Protest Forces Authorities to Halt Plan to Demolish Weizhou Grand Mosque," *South China Morning Post*, August 9, 2018, https://www.scmp.com/news/china/policies-politics/article/2159047/chinese-hui-muslims-rally-protect-weizhou-grand-mosque; "Stand-off over China Mosque Demolition," *BBC News*, August 10, 2018, https://www.bbc.com/news/world-asia-china-45140551; David R. Stroup, "Mosque Demolition Stokes Unease in Muslim China," *BBC News*, August 15, 2018, https://www.bbc.co.uk/news/world-asia-china-45178548.

(5) Jin Xu, "Elegy to the Nanguan Mosque (1981-2020)," *British Journal of Chinese Studies*, 11, 2021, 135-141, https://bjocs.site/index.php/bjocs/article/view/135; David R. Stroup, "China: Removing 'Arab-Style' Features from Country's Biggest Mosques the Latest Move in Campaign of Muslim Assimilation," *The Conversation*, September 28, 2021, http://theconversation.com/china-removing-arab-style-features-from-countrys-biggest-mosques-the-latest-move-in-campaign-of-muslim-assimilation-168799.

(6) Sam MacNeil, "Hui Poet Fears for His People as China 'Sinicizes' Religion," *AP News*, December 28, 2018, https://apnews.com/article/ap-top-news-international-news-entertainment-china-china-clamps-down-1212badad4fd-4b01a73c8b958a8a6915; Huizhong Wu, "Sign of the Times: China's Capital Orders Arabic, Muslim Symbols Taken Down," *Reuters*, July 31, 2019, https://www.reuters.com/article/us-china-religion-islam-idUSKCN1UQ0JF; David R. Stroup, "Analysis: Why Xi Jinping's Xinjiang Policy Is a Major Change in China's Ethnic Politics," *Washington Post*, https://www.washingtonpost.com/politics/2019/11/19/why-xi-jinpings-xinjiang-policy-is-major-change-chinas-ethnic-politics/.

(7) Xu, »Elegy,« *British Journal of Chinese Studies*, 135.

(٨) انظر، على سبيل المثال، تظاهرةَ امرأةٍ وحيدة، وهي موثّقة على وسائل التواصل الاجتماعيّ، ومنها: «سينا ويبو» (Sina Weibo)، و«وي تشات» (WeChat / Weixin)، وتويتر (Twitter):

Zhenghe Forum (@Zhengheforum), "Silent Protest Against Demolishing of the Dome of the Great Mosque in Xining, Qinghai of China," *Twitter*, July 24, 2021, https://twitter.com/zhengheforum/status/1415171857347751937?s=20.